السلطان سليمان القانوني وجهاده في أوربا

٩٢٧ - ٩٧٤ هـ / ١٥٢٠ - ١٥٦٦ م

تأليف

الدكتور : سعيد بن سعد سفر الغامدي

الاستاذ المشارك في التاريخ الحديث والمعاصر

كلية العلوم الإجتماعية بالرياض

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

السلطان سليمان القانوني وجهاده في أوربا

٩٢٧ ـ ٩٧٤ هـ / ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦ م

١ـ مولده ونشأته وتوليه الحكم.

٢ـ فتح مدينة بلغراد.

٣ـ فتح بلاد المجـر.

٤ـ السلطان سليمان يعين ملك المجر.

٥ـ محاولة فتح فينّا.

٦ـ آخر حملة للسلطان على أوربـا.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بلغت الدولة العثمانية أوج مجدها وعظمتها في عهد السلطان سليمان القانوني الذي مد الفتوحات العثمانية إلى بلغراد، وبودابست وفينّا، حتى بلغت الفتوحات الإسلامية أواسط أوربا تقريباً.

وكان لهذا السلطان نشاط حربي هائل ضد الدول الأوربية في البحر المتوسط إلى جانب نشاطه العسكري ضد الشيعة في فارس.

وقد أدى إتساع لدولة العثمانية في ثلاث قارات إلى قيام حركات ثورية ضد الحكم العثماني ساعد في إنتشارها وزيادتها تنوع الجنسيات وتعدد الأقليات داخل الدولة العثمانية.

وقد أخترت جانباً من جوانب جهاد السلطان سليمان القانوني. وهو: "جهاده في أوربا" لقلة الكتابات التاريخية في هذا الموضوع رغم الهمة العجيبة التي أمتاز بها هذا السلطان الذي يعد أعظم سلاطين الدولة العثمانية.

فالمصادر التركية لا تمدنا بمادة كافية نستطيع أن نعتمد عليها في إعادة الكتابة عن هذه الشخصية فمعظم ما نصادفه الإغراق في مدحه والثناء عليه.

أما المصادر والمراجع العربية والمعربة فهي قليلة جداً لايتعدى مافيها إشارات سريعة وعاجلة لا تُغني شيئاً.

وقد حاولت في هذه البحث جمع تلك الإشارات واللمحات السريعة في المصادر والمراجع التركية والعربية والمعربة من أجل إخراج صورة حقيقية معتدلة لجهاد السلطان سليمان القانوني في أوربا.

والله الموفق.

مولده ونشأته وتوليه الحكم :

ولد سليمان بن سليم الأول. الذي لقب فيما بعد بالقانوني عام ٩٠٠هـ/١٤٩٤ ــ ١٤٩٥ م، وامه عائشه سلطان إبنة منكلي كراي خان القرم[١]. وكانت ولادته في مدينة طرابيزون[٢]. حيث قضى بها أيام طفولته في كنف والدته ورعايتها حتى بلغ الحادية عشرة من عمره. وتلقى تعليمه الأولي في هذه المدينة[٣].

ثم بدأ السلطان سليم الأول في الإشراف المباشر على تربية إبنه سليمان ورعايته وإعداده الإعداد الرجولي الذي يتناسب معه كأحد أمراء البيت العثماني الحاكم. فكان يحضر مجالس أبيه في حضرة رجال الدولة، كما كان يصطحبه في رحلات الصيد كعادة السلاطين والملوك والأمراء، فهو بذلك يمضي أياماً طويلة بعيداً عن أمه وخدمه في كنف أبيه ومعلميه الذين يولونه جل إهتمامهم لإكسابه عصارة خبراتهم في الفروسية والصلابة وتحمل المشاق والصبر على المواقف الصعبة[٤].

كما أخذ سليمان عن شيوخه علوم القرآن الكريم، بالإضافة إلى تعلم القراءة والكتابه والحساب... والادب والشعر، كما درس اللغة العربية، واللغة الفارسية والتركية، وبذلك أتسع أفقه وتنوعت ثقافته[٥].

---

(١) محمد ثريا أفندي : سجل عثماني، الآستانة ١٣١١ هـ، جـ ١، ص ٤٩.

(٢) طرا بيزون مدينة جميلة تقع على مرتفع يطل على البحر الأسود، وبها اسواق ومبانٍ فخمة يتوسطها القصر السلطاني الذي يحيط به أسوار عالية.
(شمس الدين سامي : قاموس تركي، إستانبول ١٣١٧ هـ، ص ٤٩١)

(٣) محمد ثريا أفندي : المصدر السابق، جـ ١، ص ٦٣.

(٤) اندريه كلو : سليمان القانوني مثلٌ من التماذج بين الهوية والحداثة. تعريب البشير بن سلامة، الكتاب مترجم من الفرنسية، دار الجيل، بيروت، ص ٦٢ و٦٣.

(٥) محمد ثريا أفندي : المصدر السابق، جـ ١، ص ٦٥.
عبد القدر ده ده أغلو: اليوم العثمانيين، ترجمة محمد خان، الناشر الدار العثماني للنشر ١٣٩٧هـ، ص٤٧.

وعندما بلغ الخامسة عشرة من عمره عيّنه جده السلطان با يزيد الثاني عاملاً على ولاية (شبين قارا حصار)[٦]. ثم انتقل بعدها والياً على مدينة (بولو)، ثم والياً على مدينة (كفّه)[٧]. حيث أمضى فيها ثلاث سنوات.

وبعد بلوغ سليمان سن الثامنة عشرة عيّنة والده سليم الأول ـ الذي أصبح السلطان بعد تنازل والده با يزيد عن الحكم ـ قائم مقام على إستانبول، ثم أميراً على إمارة صاروخان على بحر إيجه، وبقي في هذه الإمارة إلى يوم إعتلائه العرش، ما عدا بعض الفترات القصيرة التي أوكل إليه والده حكم مدينة أدرنه ثم إستانبول أثناء معاركه في إيران، ومع الدولة المملوكية في الشام ومصر[٨].

وفي سنة ٩٢٧ هـ / ١٥٢٠ م توفي السلطان سليم الأول وهو في طريقه من إستانبول إلى أدرنه، وأتفق الصدر الأعظم بير باشا وكبار الوزراء في الدولة على كتمان خبر وفاة السلطان سليم حتى يحضر إبنه وولي عهده سليمان إلى العاصمة إستانبول لتسلم السلطة خشية تمرد الجيش الإنكشاري في الدولة[٩].

حضر سليمان إلى إستانبول في نهاية الاسبوع الذي توفي فيه والده السلطان سليم الأول. وكان في إنتظاره الصدر الأعظم، والوزراء، والأمراء، وشيخ الإسلام وكبار العلماء. وتمت بيعة سليمان بالحكم، ثم شيّع الجميع جنازة السلطان سليم وتم دفنه بالقرب من باب أدرنه[١٠].

---

(٦) مدينة صغيرة تقع شمال الأناضول الأوسط على بعد مائة كيلو متر من البحر الأسود.

(٧) مدينة تجارية تصل إليها أهم منتجات الهند وجنوب شرق آسيا كالتوابل والحرير والقطن ومنها تنتقل إلى أوربا عن طريق البحر المتوسط، فتحها السلطان محمدالثاني (الفاتح) سنة ٨٨٠ هـ / ١٤٧٥ م مع سائر بلاد القرم، وعيّن الخان منكلي حاكماً عليها، وتزوج سليم إبنة هذا الحاكم حيث أنجبت سليمان. (سامي : قاموس الاعلام، جـ ٤، ص ٦٨ ـ ٦٩).

(٨) قره جلبي زاده : سليمان نامه، بولاق ١٢٤٨ هـ، ص ٤٨ ـ ٥٠.

(٩) قره جلبي زاده : المصدر نفسه، ص ٥٣ ـ ٥٨.

(١٠) سليمان القانوني : ديوان محبي، الآستانة ١٣٠٨ هـ، ص ١٨١.

تولى السلطان سليمان الحاكم وعمره يناهز السادسة والعشرين تقريباً، وكان تقياً متسامحاً، ذكياً ومثقفاً، وسياسياً ماهراً، استهل حكمه بتوزيع الهبات والاعطيات على جميع أفراد الجيش الإنكشاري، كما أصدر أمراً برفع مرتبات الجند وجميع موظفي الدولة، كما عفى عن كثير من المسجونين من الأعيان والتجار وعامة الناس(١١).

كما استهل حكمه بإنصاف التجار الذين تضرروا من الإجراءات التي أتخذها السلطان سليم ضد فارس. ووضع حداً للإجراءات الإستبدادية التي كان يمارسها بعض الولاة والحكام، ونظم الضرائب بشكل يحقق العدالة والمساواة في الدولة، وفرض نظماً وقوانين إدارية على جميع الإدارات الحكومية، كما نظم الجيش الإنكشاري تنظيماً دقيقاً يكفل إستمرار الفتوحات الإسلامية. وشهدت فترة حكمه الطويلة إصدار القوانين التي حددت كيان الحكومة وحقوق وواجبات كل من أعضاء الطبقة الحاكمة والرعايا، وهذا هو السبب الذي من أجله أطلق عليه لقب " القانوني "(١٢).

ومما ساعد السلطان سليمان القانوني على تنفيذ هذه السياسة أن الدولة كانت تنعم بخيرات وثروات وفيرة بلغت درجة كبيرة من الإتساع.

ولكن تبين منذ الأشهر الأولى لحكم السلطان سليمان أن طموحاته كانت واسعة ليس لها حدود. وأنه كان يخطط للإرتفاع بمستوى الدولة عشرات أضعاف ما هي عليه بصفته السلطان العاشر في الدولة العثمانية(١٣).

---

(١١) حافظ حسين الأيوانسرايي : حديقة الجوامع، الآستانة ١٢٨١ هـ، جـ ١، ص ١٦.

(١٢) داتشمان ظهوري : عثمانلي إمبراطور لوغو تاريخي، إستانبول، ١٩٦٥ م، جـ ١، ص ١٢١.
أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/١٩٨٢م، ص٨٨ و٨٩.
نور الدين حاطوم : تاريخ عصر النهضة الأوربية، الطبعة الأولى، دار الفكر الحديث، بيروت، لبنان، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م، ص ٣٤٢.
عبد العزيز محمد الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مطبعة جامعة القاهرة، للناشر مكتبة الأنجلو المصرية، جـ ١، ص ٤٤.

(١٣) حافظ حسين الأيوانسرايي : المصدر السابق، جـ ١، ص ١٧.

بدأ السلطان سليمان القانوني يعمل في ثلاثة ميادين رئيسية :

الأول منها : القضاء على بعض الفتن والثورات الداخلية التي شبت في الدولة العثمانية بعد وفاة السلطان سليم الأول. والتي اعتقد مثيروها أن هذا السلطان الشاب ـ سليمان ـ لن يستطيع التصدي لهم أو الثبات أمامهم. وقد خاب ظنهم حيث تمكن السلطان سليمان القانوني من القضاء عليهم جميعاً حتى أعاد الهدوء والإستقرار والأمن إلى ربوع الدولة العثمانية.

الميدان الثاني : تنظيم أمور الدولة من كافة النواحي الإدارية والسياسة والعسكرية والإقتصادية والتعليمية... بما يتناسب مع التطور الذي وصلت إليه الدولة. ولهذا لُقب هذا السلطان بـ " القانوني " ـ كما أشرت سابقاً ـ لكثرة القوانين التي أصدرها طوال فترة حكمة التي أمتدت زهاء ستة واربعين عاماً. والتي تهدف في جملتها إلى نزاهة ودقة الحكم وتحقيق العدالة والمساواة بين جميع أفراد الرعية حسب تعاليم الدين الإسلامي الحنيف.

أما الميدان الثالث : فهو الحروب الخارجية ونشر الإسلام في أوربا حيث أستطاعت الجيوش العثمانية المسلمة البرية والبحرية تحقيق إنتصارات عظيمة على عدد كبير من دول أوربا النصرانية وأرغمت بعضها على دفع الجزية. وأصبحت الجيوش العثمانية في موقف المهاجم لا المدافع. بل إن الاسطول العثماني غدا سّيد البحر المتوسط، واصبح الكثير من ملوك أوربا وحكامها ينشدون مودته وصداقته مثل ملك فرنسا.

وفي إطار الميدان الثالث قاد السلطان سليمان القانوني سلسلة من المعارك ضد الدولة الشيعية في فارس. حقق خلالها إنتصارات باهرة حدّت من إنتشار هذا المذهب.

وقد جمع السلطان سليمان بإقتدار بين كفاءتين متميزتين : إستراتيجية عسكرية باهرة، وتشريع قانوني مبجّل(١٤).

---

(١٤) فؤاد شاكر : البوسنه والهرسك. مأساة شعب وهوان أمة. الدار لمصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م، القاهرة، ص ٢٣.

وقد تولى السلطان سليمان الحكم وهو شاب يافع، وغادر الدنيا وهو شيخ كبير قد جاوز السبعين من عمره. ولم يتخلف عن ميادين الجهاد في سبيل الله. فقد عرفته بلغراد، ورودس، وموهاج " موهاكسل "، وفينًا، وبلاد المجر، علاوة على ميادين الجهاد في البحر.

ولم تكن هذه الميزة للسلطان سليمان القانوني فحسب. بل إن الدولة العثمانية قامت أساساً على الجهاد في سبيل الله. ولهذا لم يكن غريباً أن تكون الصفة الملازمة لأي سلطان عثماني هي صفة " الغازي " وقد كانت هذه الكلمة حقيقة في مضمونها منذ قيام الدولة حتى عهد السلطان سليمان القانوني، حيث بدأت الدولة تنهار بعد وفاته.

وكان السلطان سليمان القانوني لصدق تقواه يلقي الخطب الحماسية قبل المعارك، ومنها ما القاه قبل معركة موهاج من خطبة حماسية توجه فيها بالدعاء إلى الله سبحانه وتعالى ان يحقق النصر والعزة والتمكين لجنده.

ومن الإستراتيجية التي سار عليها السلطان سليمان القانوني في حروبه كلها. وهي إستراتيجية سار عليها أسلافه من قبل ما يلي :

١ـ عدم شن حرب إلا بعد وقوع عداوة على ثغور المسلمين وبلادهم.

٢ـ ترك الخيارات مفتوحة أمام الشعوب التي تتصدى لحرب المسلمين إما الإسلام، أو الجزية، أو الحرب.

٣ـ إعطاء الحرية للشعوب التي ترضى بدفع الجزية حتى تتعرف على الإسلام، ثم تشجيعها بإسقاط الجزية عنها إن هي أسلمت.

٤ـ حماية الحريات الدينية لغير المسلمين، أصحاب الكتاب من نصارى ويهود.

٥ـ إعزاز المسلم في المجتمع الإسلامي، والدفاع عنه حيثما وجد حتى يشعر بقوة الإسلام وعزته.[١٥]

---

(١٥) بسام العسيلي : مشاهير الخلفاء والامراء ـ القانوني القائد، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م، دار النفائس بيروت، لبنان، ص ١٤٠.

ولهذا لم يكن غريباً على السلطان سليمان القانوني الوصول إلى أهدافه عن طريق المفاوضات. وبالتالي يتحقق ما يصبو إليه من السيادة العثمانية. ومن سياسته أيضاً إبقاء الملوك الأوربيين على سيادة بلدانهم طالما أنهم أظهروا الطاعة والولاء للدولة العثمانية. ولم يعارضوا إقامة الحاميات الإسلامية في بلدانهم. كذلك إقامة المساجد عند فتح كل إقليم جديد، أو الإستيلاء على مدينة لم يسبق للمسلمين الوصول إليها من قبل. وكانت الجيوش العثمانية تتصف بشدة بأسها في الحروب والمعارك. وبعد ذلك تتجه لإقامة المجتمع الإسلامي، ونشر الدين الإسلامي في هدوء ولين الجانب مع الطرف الآخر[١٦].

فتح مدينة بلغراد :[١٧]

تعتبر بلغراد البوابة الشرقية لأوربا، وقد بذل سلاطين الدولة العثمانية جهوداً مضنية لفتح هذه المدينة وإخضاعها خاصة وان الفتوحات العثمانية قد تقدمت في البلقان دون عائق، واستقر العثمانيون في المناطق التي فتحوها. وقد أدرك العثمانيون منذ وقت مبكر الأهمية الاستراتيجية لبلغراد كبوابة للعبور خارج منطقة البلقان لتحطيم القوة الرئيسية التي بقيت أمامهم في المنطقة وهي بلاد المجر. وقد قام السلطان مراد الثاني بحصار بلغراد تمهيداً لفتحها عام ٨٤٤ هـ/ ١٤٤٠م، ولكن هذا الحصار فشل بعد أن استمر أكثر من ستة شهور[١٨].

وفي عهد السلطان محمد الثاني (الفاتح) تم حصار بلغراد من ناحية البر ومن ناحية البحر. نهر الدانوب عام ٨٦١ هـ / ١٤٥٦ م، واستمر القصف العثماني لهذه المدينة أكثر من أربعين يوماً دون جدوى بسبب مناعة وقوة أسوار هذه المدينة وقوة الجيش المدافع عنها[١٩].

---

(١٦) بسام العسيلي : المرجع السابق، ص ١٤١ - ١٤٣.

(١٧) بلغراد عاصمة يوغسلافيا حالياً، تقع على نهر الدانوب (الطونة).

(١٨) فريدون : منشآت سلاطين، الآستانة، جـ ١، ص ٥٠٧.

(١٩) فريدون : المصدر السابق، جـ ١، ص ٥١٠.

واستمرت هذه المدينة حجر عثرة في طريق الجيوش العثمانية الفاتحة للوصول إلى داخل أوربا حتى كان عهد السلطان سليمان القانوني الذي اهتم بهذه المدينة منذ أن كان ولياً للعهد. ويذكر "اوليا شلبي" انه عبر عن أمنيته هذه بقوله : " إذا منحني الله الحكم فسأوجه جيشاً إلى بلغراد "(٢٠).

وكانت الشرارة التي أشعلت نار الحرب بين الدولة العثمانية وبلاد المجر أن السلطان سليمان القانوني أرسل رسولاً إلى ملك المجر يعرض عليه الإسلام أو دفع الجزية أو الحرب. فما كان من ملك المجر لويس الثاني إلا أن أمر بإعدام ذلك الرسول فاستشاط السلطان القانوني غضباً وصمم على إعلان الحرب وفتح بلاد المجر(٢١).

بدأ السلطان ترتيبات الحرب طوال شتاء عام ٩٢٧هـ / ١٥٢٠م وقام بتنظيم الجيش وتسليحه وزيادة وحداته وحجز الذخيرة والمؤنة والحيوانات اللازمة لنقلها. وتعبيد الطريق وبناء الجسور. وكان هدف السلطان بلغراد المنفذ الرئيسي لبلدان الدانوب وبوابة المجر الشرقية(٢٢).

أدرك المجريون أن موجة هائلة من المسلمين تهددهم وأن بلادهم في خطر فاستنجدوا بدول أوربا النصرانية لإيقاف الزحف الإسلامي. غير أن دول أوربا تلكأت في تلبية إستنجاد ملك المجر. فقد كانت البندقية تناقش معاهدة تجارية مع الدولة العثمانية تحقق لها مكاسب كبيرة. إلى جانب إنشغال البابا في روما وبعض دول أوربا بحركة مارتن لوثر(٢٣). وكان النزاع على أشده بين شارل الخامس ملك

---

(٢٠) محمد موفق الأرناؤوط : الإسلام في يوغسلافيا من بلغراد إلى سراييفو، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م، دار البشير للنشر، عمان، الأردن، ص ٢٣.

(٢١) دانشمان ظهوري : عثمانلي بادشا هلري، إستانبول، ١٩٧١ م، جـ ١، ص ٩٧ - ١٨٠.

(٢٢) منجم باشي : صحائف الأخبار، الآستانة، ١٢٨٥ هـ، جـ ٣، ص ١٢٣.

محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٦ م، ص ٥٥.

(٢٣) مارتن لوثر Martin Luther(٨٨٣ - ٩٥٣هـ/١٤٨٣ - ١٥٤٦م)، زعيم الحركة اللوثرية Lutherism.

اسبانيا وفرانسو الأول ملك فرنسا على دوقية ميلان الواقعة في شمال غربي إيطاليا. فأصبح وضع المجريين سيئاً[٢٤].

غادر السلطان سليمان القانوني إستانبول في موكب حافل في أول عام ٩٢٨هـ /١٥٢١م بمناسبة أول غزوة يقوم بها السلطان. وكان رحيل السلطان إلى الحرب مشهداً عظيماً، واستعراضاً للقوة، موجهاً إلى الملوك والأباطرة الأوربيين الذين كان سفراؤهم في إستانبول يخبرونهم بذلك. وكان في مقدمة الجيش العثماني ستة آلاف فارس[٢٥].

تدفقت الجيوش العثمانية كالسيل العارم بقيادة السلطان سليمان القانوني حتى وصلت إلى صوفيا عن طريق أدرنه. وهناك التحق الوزير العثماني فرحات باشا بالجيش الرئيسي ومعه عدة آلاف من الإبل المحملة بالمدافع والذخيرة. وكان على نصارى صوفيا والمدن المجاورة تزويد الجيش العثماني بعشرة آلاف عربة من القمح والشعير[٢٦].

بعد مدينة صوفيا قسم السلطان سليمان القانوني جيشه إلى ثلاثة فيالق رئيسية. الأول منها بقيادة أحمد باشا لمحاصرة مدينة " شابتس " القريبة من بلغراد، والثاني بقيادة محمد مغال أغلو وغايته ترانسلفانيا، أما الفيلق الثالث فقد انطلق بقيادة الصدر الأعظم بير باشا صوب بلغراد[٢٧].

تجمعت الفيالق الثلاثة بالقرب من مدينة بلغراد. والتحق بهم السلطان سليمان لإدارة المعركة. ونصبت المدافع فوق جزيرة في ملتقى نهري الدانوب والصافا.

---

(٢٤) عثمان زاده : حديقة الوزراء، الآستانة، ١٢٧١ هـ، ص ٨١ ـ ٩٠.

(٢٥) دانشمان ظهوري : عثمانلي بادشاهلري، جـ ١، ص ١٢٢.
فريدون : المصدر السابق، جـ ١، ص ٥٣٠.

(٢٦) عثمان زاده : حديقة الوزراء، ص ١٠٠ ـ ١٠٣.

(٢٧) أحمد راسم : تاريخ، إستانبول، ١٣٢٦ ـ ١٣٢٨ هـ، ص ١٣٠ ـ ١٣٧.
حافظ حسين الأيواسرايي : المصدر السابق، جـ ١، ص ٧٠ ـ ٧١.

وبدأت المدافع تقصف القلعة والأسوار بدون إنقطاع حسب خطة العثمانيين المعروفة في المعارك. وتوالت الهجمات تلو الهجمات طيلة ثلاثة أسابيع دون جدوى. حتى أمر السلطان بنسف أكبر برج في تحصينات المدينة. فبدأت بوادر النصر تلوح للعثمانيين رغم الشجاعة الكبيرة التي أبداها المدافعين عن المدينة من المجريين والصربيين(٢٨).

وبعد عدة أيام من المعارك الدامية بين الطرفين ليل نهار تمكنت الجيوش العثمانية من فتح مدينة بلغراد. وأمر السلطان سليمان بإيقاف الحرب بعد إستسلام ما تبقى من المدافعين عن المدينة. وقام السلطان بتحويل أهم كنيسة في المدينة إلى جامع وصلى فيها سليمان أول صلاة للجمعة(٢٩).

وسرعان ما انتشرت أصداء إنتصارات الجيوش العثمانية في أوربا. وجاءت رسُل البندقية وروسيا ودول أوربية أخرى لتقديم التهاني للسلطان(٣٠).

غير أن سقوط بلغراد في أيدي المسلمين وهي تعتبر الحصن الحصين للنصرانية والمنفذ الرئيسي إلى بلاد المجر قد أشاع الخوف والقلق والإضطراب في الدول الأوربية النصرانية.

وكتب جسلان دي بوسبك وهو السفير الثاقب الفكر لفرديناند الاول في إستانبول بعد ثلاثين سنة من ذلك التاريخ : "ان سقوط بلغراد كان سبباً في الوضع المأسوي الذي وجد فيه المجر نفسه بعد ذلك. فهذه الهزيمة هي التي تسببت في موت الملك لويس، وفي سقوط

---

(٢٨) نهاد سامي بتارلي : دستان ملوك آل عثمان، إستانبول، ١٩٣٨ م، ص ٥١ ـ ٧٠.
عبد الله خلوصي : دوحة الملوك، الآستانة، ١٢٩٧ هـ، ص ٤١ ـ ٥٧.

(٢٩) بسام العسيلي : المرجع السابق، ص ٢٨.
محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، الطبعة السادسة، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨ م، دار النفائس، بيروت، لبنان، ص ٢٠٢.
إبراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، الطبعة الأولى، ١٣٢٣ هـ ـ ١٩٠٥ م، مطبعة عموم الأوقات، ص ٨٦.

(٣٠) نامق كمال : عثمانلي تاريخ، الآستانة، ١٣٢٦ ـ ١٣٢٨ هـ، ص ٦٧.
محمد جمال : وثائق سياسية، الآستانة، ١٣٢٧ هـ، ص ٤٣ ـ ٥٥.

بودابست. واحتلال ترانسلفانيا وانهيار مملكة مزدهرة، وخوف الأمم المجاورة من أن يكون مصيرها نفس المصير. وكان من الواجب أن تكون هذه الاحداث عبرة للأمراء النصارى، حافزة إياهم على أن يفهموا أنهم إذا هم أرادوا النجاة بأنفسهم فعليهم التأكد من قدرة تحصيناتهم وقلاعهم على الصمود أمام العدو. فالجيوش التركية تشبه الأنهار العظيمة التي تزيدها الأمطار قوّة، وإذا تسنى لهذه الأمطار أن تتسرب خلال الحواجز الواقية، فإنها تتدفق عند ذلك من خلال الثلمات وتحدث أضراراً لا حدَّ لها. وهكذا الأتراك فهم إذا تمكنّوا من إزاحة الحواجز الحافزة لهم، فإنهم يتدفقون كالسيل الجارف "[٣١].

هذا النص يبين مدى قوة الجيوش العثمانية، ومدى الذعر والخوف الذي وصلت إليه حكومات وشعوب دول أوربا النصرانية.

وما إن فرغ السلطان سليمان القانوني من فتح بلغراد عام ٩٢٨هـ/١٥٢١م حتى أنتزع جزيرة رودس من فرسان القديس يوحنّا عام ٩٢٩ هـ / ١٥٢٢ م[٣٢] وهذا الموضوع خارج عن إطار هذا البحث.

فتح بلاد المجر :[٣٣]

صمم السلطان سليمان القانوني على مواصلة الفتوحات الإسلامية في أوربا، وتوسيع دار الإسلام، وكانت بلاد المجر هي أقرب البلاد النصرانية الأوربية التي تهدد أمن وسلامة الدولة العثمانية.

---

(٣١) أندريه كلو : سليمان القانوني ... مرجع سبق ذكره، ص ٨١.

(٣٢) أنظر تفاصيل حملة السلطان سليمان القانوني على جزيرة رودس في :
فريدون : منشآت سلاطين، ص ٥٢٩ وما بعدها.
وسعد الدين : تاج التواريخ، جـ ١، الآستانة، ١٢٧٩ هـ، ص ١٢٣ وما بعدها.

(٣٣) المجر أو مجيار : هي هنغاريا. عاصمتها بودابست. يحدها شمالاً تشيكوسلوفاكيا وشرقاً رومانيا، وجنوباً يوغسلافيا، وغرباً النمسا، (يوسف آصف : تاريخ سلاطين آل عثمان. تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، دار البصائر، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، ص ٣٧).

وكانت الأوضاع العامة في الدولة العثمانية هادئة ومستقرة تشجّع السلطان على مواصلة الفتح الإسلامي في أوربا، أما الأوضاع العامة في أوربا فقد كانت هي الأخرى مشجعة للسلطان على مواصلة مثل هذا المشروع الكبير فقد كانت بعض دول أوربا منشغلة بفتن وأحقاد وإضطرابات داخلية بين بعضها البعض. أما البعض الآخر فقد كان في حالة كبيرة من الضعف إلى درجة لا يستطيع معها مجابهة الدولة العثمانية.

أما بلاد المجر فقد كانت منقسمة ومفككة إلى أبعد الحدود، فكان القرويون في حالة بؤس وشقاء حتى أن كثيراً منهم ينتظر العثمانيين ويعتبرونهم بمثابة المحررين والمنقذين لهم، وكان يوحنا زابولا يتآمر للاستحواذ على العرش، وكانت عواطف نبلاء المجر معادية للألمان إلى درجة أنهم لم يترددوا في أن يطلبوا من الملك طرد كل الألمان الذين يلتفون حوله وحول زوجته في البلاط وهي من أسرة الهبسبورغ الألمانية مع العلم أن بلادهم في حاجة ماسة للإعانة الخارجية، وكان المجريون يشاطرون فكرة "لوثر" القائلة بأن إنتصارات الأتراك إنما هي عقاب عادل لما اقترفه الرومان من فساد وظلم إجتماعي(٣٤).

أخذ السلطان سليمان القانوني يواصل إستعداداته العسكرية أواخر عام ٩٣٢هـ / ١٥٢٥م وأنصبت كل الإهتمامات نحو المدفعية التي كانت هي السبب الرئيسي بعد الله في إنتصار العثمانيين في كثير من المعارك،كما قام السلطان ببناء عدد كبير من السفن علاوة على السفن الموجودة من قبل(٣٥).

---

(٣٤) هربرت فيشر : أصول فتاريخ الأوربي الحديث من النهضة الأوربية إلى الثورة الفرنسية، ترجمة زينب عصمت راشد وأحمد عبد الرحيم مصطفى، الطبعة الأولى، ١٩٦٥م، دار المعارف بمصر، ص ٩٠ ومابعدها.

حاجي خليفة : تقويم التواريخ، الآستانة، ١١٤٦ هـ، ص ١١٢ ـ ١٢٨.

خير الله : دولت عثمانية تأريخ، الآستانة، ١٢٩٢ هـ، جـ ١١، ص ١٦٧.

يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة : عدنان محمود سليمان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، إستانبول، ص ٢٦٧.

(٣٥) أحمد راسم : تاريخ، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٠ ـ ١٤٢.

منجم باشي : المصدر السابق، جـ ٣، ص ١٨٧.

وفي سنة ٩٣٣هـ/أبريل ١٥٢٦م أكتملت إستعدادات السلطان وخرج من باب أدرنه على رأس مائة ألف رجل،وثلاثمائة مدفع ورافقه الصدر الأعظم إبراهيم باشا، وبعض كبار ورجال الدولة، وسار الجيش متبعاً جريان الأنهار تجنباً لصعوبة إختراق الجبال، فاتجه بذلك نحو بلغراد في الشمال الغربي، وكانت الأحوال الجوية سيئة للغاية. فكانت الأمطار تهطل بغزارة مما أدى إلى نسف كثير من الجسور وفساد الطرق. إلا أن الإنضباط كان رائعاً في صفوف الجيش العثماني(٣٦). وقد كان الجيش طوال الطريق مثالاً رائعاً للجيش المسلم الفاتح في عدم التعرض لكبار السن أو النساء والأطفال أو قطع الأشجار ووصل الأمر إلى أن أصدر السلطان سليمان القانوني عقاباً لعدد من قادة الجيش والأمراء الذين سمحوا لأتباعهم من الجند بتخريب بعض المزارع واطلقوا لخيولهم العنان في تلك المزارع. وقد ذُكر هذا في يوميات السلطان سليمان(٣٧).

وحينما وصل الجيش العثماني إلى صوفيا أمر السلطان الصدر الأعظم بالتوجه إلى بيتر فارادين لمحاصرتها، بينما أتجه السلطان بمن بقي معه من الجيش إلى بلغراد .حيث كان ينتظره قائد سنجق البوسنة، وقائد سنجق الهرسك للإنضمام إليه، كما انظم إليه خان تتر القرم(٣٨).

وأثناء إقامة السلطان سليمان في بلغراد لتنظيم جيشه وصله نبأ إنتصار الجيش العثماني الذي يحاصر مدينة بيترفارادين بقيادة الصدر الأعظم بعد معارك حامية بين الطرفين لعبت المدفعية العثمانية دوراً كبيراً في تحطيم أسوار المدينة وفتحها(٣٩).

أكتمل جيش السلطان وواصلت الحملة سيرها على طول نهر الدانوب متجهة شمالاً في إتجاه العاصمة البحرية(بُدين)(٤٠)، واستطاع الجيش العثماني فتح مدينة

---

(٣٦) أندريه كلو : المرجع السابق، ص ١٠٥.

(٣٧) أحمد بن عبد الله فوري : أخلاق سليمان، برلين، ١٩٠٣ م، ص ٨٠ ـ ٩١.

(٣٨) أندريه كلو : المرجع السابق، ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

حاجي خليفة : فذلكة، إستانبول، ١٢٨٦ هـ، ص ٢٢٣.

(٣٩) حاجي خليفة : فذلكة، ص ١١٢.

(٤٠) بودا. هي بودابست عاصمة المجر(هنغارية) الآن، وهي ثلاث مدن: بودا وأبوا وبست تقع على ضفتي الدانوب.

ايلوك ومدينة أوسك. وفي الأخيرة بنى السلطان جسراً لعبور نهر الدرافا وهو جسر طوله ٣١٠ امتار وعرضه متران. وتم بناؤه في أسبوع، وبعد أن أكتمل عبور الجيش العثماني على هذا الجسر أمر السلطان بهدمه حتى لا يبقى أي أمل في الإنسحاب(٤١).

واصلت الجيوش العثمانية سيرها حتى بلغت وادي موهاكس(موهاج) على بعد عشرين كيلو متراً، من ملتقى نهري الدرافا والدانوب(٤٢)،وهناك كان ملك المجر لويس الثاني ينتظر سليمان ليقطع عليه طريق بودا(٤٣).

لم تكتمل الوحدة بين جيش لويس الثاني لذلك لجأ الى طلب الإعانة من دول أوربا. وكتب إلى ملك إنجلترا قائلاً: "إذا لم تأت النجدات من جلالتكم سريعاً فإن المملكة تنهار" لكن ملك إنجلترا لم يلبي طلب لويس. وحاول فقط تحريض شاه فارس طهماسب إشغال القوات العثمانية، وإستدراجها إلى جهة الشرق. لكن هذا لم يتم(٤٤).

أما شارلمان في اسبانيا فقد بلغه إستنجاد ملك المجر لكنه لم يرد عليه لأنه لم يكن يملك القوة الكافية. إضافة إلى بعض المشاكل الداخلية التي كان يعاني منها(٤٥).

أما النبلاء المجريون فقد قام بعضهم بالتعبئة بدون حماس، والبعض الآخر لم يتحرك من مكانه. فقد كانوا لا يريدون تدعيم وضع الملك لويس الثاني، ولا همّ لهم إلا إسترداد الإمتيازات التي نالها منهم، كما كانوا لا يريدون تدعيم آل الهبسبورغ، وكان النبلاء أيضاً منقسمين على أنفسهم بين أنصار باتوري وانصار فربوشي. لذا لم يستطيعوا الإتحاد ولو مؤقتاً في ساحة المعركة. وفرضوا على الملك بدء المعركة دون

---

(٤١) بجوى إبراهيم باشا : تاريخ بجوى، المطبعة العامرة، إستانبول، ١٢٨٣ هـ، ص ٨٧ . ٩٢.

(٤٢) بالقرب من الحدود اليوغسلافية، وهي اليوم من المدن الهنغارية.

(٤٣) أحمد رفيق : كنار سلطتي، الآستانة، ١٣٣٢ هـ، ص ٧١ ـ ٧٣.

(٤٤) أندريه كلو : المرجع السابق، ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

جلال يحى : العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، الطبعة الأولى، ١٩٨٣ م، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، ص ٣٢٣.

(٤٥) دانشمان ظهوري : المصدر السابق، جـ ١، ص ٢٢٠ ـ ٢٢٢.

استكمال الإستعدادات وكان لهم ثقة عمياء في الخيالة المجرية المغلفة بالحديد. ونسي الجميع الخيالة التركية الخفيفة والسريعة والمدافع العثمانية الهائلة[٤٦].

وقبل المعركة بيوم عقد السلطان سليمان مجلساً حربياً ضم كبار القادة والأمراء، واقترح القائد الأفينجي تجنّب مهاجمة الخيالة المجريين المثقلين بالحديد، وجهاً لوجه، واقترح أيضاً فتح ثغرة لهم في الصفوف يمرّون منها ثم الإنقضاض على أطرافهم، ووافق السلطان على هذه الخطة التي كان لتنفيذها دور كبير في إنتصار الجيش العثماني، وقام الصدر الأعظم بإستعراض وحدات الجيش العثماني. والقى فيهم خطاباً حماسياً حثهم على التضحية والإستبسال لينالوا إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة. ثم القى السلطان خطبة توجه فيها بالدعاء إلى الله سبحانه وتعالى أن يحقق النصر والعزة والتمكين لجنده...[٤٧].

ثم بدأت المعركة بين الطرفين، وهاجمت الخيالة المجرية مقدمة الجيش العثماني وهم جُند الروملي كما كان يتوقع ذلك الأتراك. وتم تنفيذ خطة القائد الأفينجي وفُتح لهم ثغرة في صفوف الجيش العثماني. ثم أنقض الخيالة العثمانيون على أطراف الخيالة المجريين بسرعة كبيرة أثارت الإضطرابات بينهم والتخبط في ميدان المعركة[٤٨].

وقد وصف المعركة المؤرخ التركي كمال باشا زاده[٤٩] قائلاً : " ولما انقض الافينجي كاللجج المتلاطمة، بدأ بحر الدماء يقلقل أمواجه المزبدة وأحالت قلانسهم الحمراء، التي تغطي رؤوسهم ميدان المعركة إلى روضة من الخزامي... وكانت

---

(٤٦) اندريه كلو : المرجع السابق، ص ١٠٨.
محمد جمال : المصدر السابق، ص ٧٠.

(٤٧) أحمد جواد : تاريخ عسكري عثماني، إستانبول، ١٨٨٢ م، ص ٣٣ ـ ٣٧.

(٤٨) أحمد جواد : المصدر السابق، ص ٤٢ ـ ٤٤.

(٤٩) هو شيخ الإسلام سنة ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م وقد اشتهر بسعة علمه وإطلاعه، ومشاركته الفعالة للجيوش في جميع الميادين.(طاشكبري زاده : الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، القاهرة، ١٣١٠هـ، جـ١، ص ١٨٧ ـ ١٨٩)

الدروع تنشق كما ينشق باطن الوردة، والخوذات تمتلىء دماء كشفاه برغم الوردة، وكان بخار الدماء يتصاعد سحاباً أحمر إلى السماء.."[٥٠].

وجاهد السلطان سليمان القانوني جهاد الأبطال، ووقف بنفسه في وسط المعركة يجاهد بكل شجاعة. وكان يحيط به فرقة من الإنكشارية. وكان الهدف الرئيسي للخيالة المجريين هو الوصول إلى السلطان. ولكن الله حماه منهم، وكانت الفرقة الإنكشارية تقوم بقطع عراقيب خيول المجريين الذين يريدون قتل السلطان[٥١].

ثم دخلت المدفعية العثمانية خضم المعركة في الوقت الذي وصل فيه الملك لويس على رأس ما تبقى معه من الجيش المجري، وفتكت المدفعية العثمانية بالخيالة المجريين. في الوقت الذي لم تقم فيه المدفعية المجرية بأي دور رئيسي لعدم خبرة القائمين عليها[٥٢].

وقد أبدى كلا الطرفين شجاعة كبيرة في معركة " موهاج " حتى قال المؤرخ التركي كمال باشا زاده عن القائد المجري بول طومري. واصفاً شجاعته : " هو كالحديد الصلب كلما طرقته الحرب زاد صلابة، فهو فيل وحية في آن واحد لا ينهار أمام مخالب الصراع، ولا تحت وطأة صخرة العراك. فكان مثخناً بالجراح ولكنه كالكلب المكلوب يتقاوى على نفسه. فإذا هو اندفع للهجوم صاخباً كالليل، انطلقت منه صرخات شبيهة بصيحة الفيل، فتهرب من أمامه النمور والأسود..."[٥٣].

وبرزت رأية النصرة للإسلام والمسلمين في معركة "موهاج" وامتلأ ميدان المعركة من جثث المجريين، ولاذ من تبقي منهم بالفرار، وغاصوا في المستنقعات، وكان من بينهم الملك لويس الذي أحرقه حديد النار والعار فارتمى بجواده وعربته في النهر فكانت نهايته

---

(٥٠) طاشكبري زاده : المصدر السابق، جـ ١، ص ١٩١.

(٥١) قره جلبي زاده : المصدر السابق، ص ٨٢ ـ ٨٣.
عبد الله خلوصي : دوحة الملوك، ص ٩٨.

(٥٢) عبد الله الخلوصي : المصدر السابق، ص ٧٠.

(٥٣) أندريه كلو : المرجع السابق، ص ١٠٩.

المخزية حيث تبعه من بقي من جنده أسوة بقائدهم وملكهم(٥٤).

ولم يسعف العثمانيين الوقت لملاحقة الهاربين المنهزمين، فقضوا ليلتهم في ميدان المعركة، وفي اليوم الثاني قام السلطان سليمان القانوني بجولة في ميدان القتال، ثم نُصبت له خيمة تلقى فيها التهاني بالنصر من الصدر الأعظم والقادة العسكريين والأمراء والوزراء والولاة، ثم قام السلطان بتوزيع الهداياوالمنح والاعطيات للجند وقادتهم نظير ما قاموا به وما أبدوه من شجاعة نادرة حسمت المعركة(٥٥).

وكتب السلطان سليمان إلى والدته لإعلامها بالنصر، وأرسلت صور مكاتيبه إلى إستانبول وحكام الولايات والمقاطعات. فقد روى السلطان زحف الجيش العثماني نحو الدانوب، والإستعدادات التي تمت، وتفاصيل معركة"موهاج"، ونوه بالصدر الأعظم إبراهيم باشا والدور البطولي الذي قام به. حيث قال السلطان :."... هذا البطل الذي أبرز كل قيمة الفطرية الكامنة فيه..." وختم قائلاً : " إن الله مَنّ عليه بنصر لم يمن به على أي سلطان من السلاطين، ولا أي خان من الخواقين العظماء... فلقد استؤصل ما بقي من كفر في أمّة الكفار. فالحمد لله رب الكائنات."(٥٦).

ثم أمر السلطان جيشه بالرحيل إلى بودابست، واستقر في القصر الملكي، وأعلن السلطان لسكان المدينة أنه لن يلحق بهم أي ضرر لافي أبدانهم ولا متاعهم(٥٧).

وقبل مغادرة المدينة أمر الصدر الأعظم إبراهيم باشا بنقل جميع مدافع العدو، وكنوز القصر إلى إستانبول كغنائم، كما نقل بعض الصور والتحف، وأخذ معه أيضاً

---

(٥٤) عبد الله خلوص : المصدر السابق، ص ٧٣ ـ ٧٤.
سلانيكي : تاريخ، الآستانة، ١٢٨١ هـ، ص ٨٠ ـ ٨٣.
أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق، ص ٨٩ و٩٠.

(٥٥) منجم باشي : المصدر السابق، جـ ٣، ص ١٤٤ ـ ١٤٧.
نهاد سامي بانارلي : المصدر السابق، ص ٨٣ ـ ٨٧.

(٥٦) قره حلبي زاده : سليمان نامه. مصدر سبق ذكره، ص ٩٠.

(٥٧) خير الله : المصدر السابق، جـ ١١، ص ١٨٣ ـ ١٨٥.

مكتبة الملك السابق "ماتياس كورفين"، وهي من اغنى مكتبات أوربا في ذلك العصر، وحضر النبلاء وسكان المدينة لتقديم ولائهم للسلطان(٥٨).

وفي أواخر نوفمبر من العام نفسه وصل السلطان وجيشه إلى إستانبول حيث استقبله ولي عهده ابنه سليم وأهالي إستانبول إستقبالاً حافلاً يليق بحجم النصر الذي حققه الجيش العثماني في"موهاج". ولم يترك السلطان أية حامية في البلاد المفتوحة، ما عدا حامية صغيرة في مدينة " بتروفرادين "(٥٩).

السلطان سليمان يعيّن ملك المجر :

بعد هزيمة المجريين في معركة "موهاج" وبعد مقتل الملك لويس أصبحت بلاد المجر مفككة ومضطربة ليس لها حاكم. إلا أنها بحكم الحرب أصبحت تابعة للدولة العثمانية المسلمة التي فتحتها بحد السيف. وكما ان نبلاء المجر عجزوا عن الإتحاد في المعركة فقد عجزوا أيضاً عن الإتحاد بعد المعركة وإنتخاب حاكم لهم يعقب الملك لويس.

وأول من طالب بحكم المجر بعد معركة " موهاج " فرديناند من آل هبسبورغ. أما أغلب النبلاء المجريين فمالوا إلى أن تكون السلطة في يد أمير من بينهم، لا أجنبي، يصعب التعامل معه(٦٠).

وبعد ستة أسابيع من رحيل الجيش العثماني اختار نبلاء المجر حاكماً عليهم أمير وقائد ترنسلفانيا وهو " يوحنا زابولا " ونصّبوه ملكاً عليهم في الوقت الذي نُصب فيه فرديناند ملكاً على المجر. فاصبح للمجر ملكان(٦١).

---

(٥٨) أحمد رفعت : روضة العزيزية، الآستانة، ١٢٨٢ هـ، ص ١٩٣ و١٩٤.
أحمد بن عبد الله فوري : المصدر السابق، ص ٩٧ - ٩٩.
(٥٩) أحمد راسم : تاريخ، ص ١٤٠ - ١٤٣.
حاجي خليفة : تقويم التواريخ، ص ١٣٥.
(٦٠) تندريه كلو : المرجع السابق، ص ١١٣.
(٦١) روبير مانتران : تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة بشير السباعي، الطبعة الأولى، ١٩٩٣ م، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ص ٢٢١.

وكان يميل إلى "يوحنا زابولا" كل الذين يخشون تفاقم سلطة الهبسبورغ، ويأتي في مقدمتهم فرانسو الأول ملك فرنسا، وكذلك أمراء بافيار، والبابا كليمان السابع، والبندقية، وإنكلترا. غير أن تأييد هؤلاء لم يتعدّ الكلام ولم تؤيده الأعمال(٦٢).

وسرعان ما تغلب فرديناند. وتمكنت جيوشه من هزيمه يوحنا زابولا وطرده بعد معركة " توكاي " فالتجأ إلى بولندا(٦٣).

أرسل يوحنا زابولا من بولندا وفداً إلى السلطان سليمان القانوني الذي يعتبر الحاكم الفعلي لبلاد الدانوب. وقد وصل الوفد إلى إستانبول برئاسة " جيروم لاسيكي " وكان ديبلوماسياً ماهراً، ومن أصحاب القلم والسيف براعة وحنقاً. وبدأ بالإتصال بالصدر الأعظم إبراهيم باشا. الذي بادره قائلاً : " نحن قتلنا الملك، واحتللنا قصره. فالمملكة مملكتنا... إنه الجنون بعينه أن تكون الملوك ملوكاً بالتيجان. السلطة لا تكون بالجواهر الكريمة والذهب، إن السيطرة لا تكون إلا بالحديد، وما تم الإستيلاء عليه بالسيف يُستبقى بالسيف، فليضع سيدك يده في يدنا، وليعترف بنا أسياداً له. وعند ذلك يكون له الملك، وتكون له الاعانات بالقدر الذي نحوّل فيه فرديناند واصدقاءه إلى غبار، وندك جبالهم تحت سنابك خيلنا، نحن الأتراك قليل كلامنا، كثير فعالنا وإذا اقتضى الأمر سنكون هناك، وسنجعل من بودا قسطنطينية جديدة."(٦٤).

وبعد هذا اللقاء بين لاسيكي والصدر الأعظم أستقبل السلطان سليمان القانوني لاسيكي بصفة رسمية. وأعلن القانوني أن زابولا هو ملك المجر(٦٥)، واردف قائلاً للاسيكي : " إنني اتقبل بارتياح خضوع ملك، مع العلم أن بلاده ليست له بل لي، استوليت عليها بحكم الحرب وبحد السيف. فأنا أسلّم إليه المملكة، وعلاوة على ذلك فإني أروم إعطاء سيدك مساعدة، ضد النمساوي، ينام معها ملء جفنيه هانئاً."(٦٦) وحلف لاسيكي أن

---

(٦٢) روبير ماتران : المرجع نفسه، ص ٢٢١ ـ ٢٢٣.
(٦٣) اندريه كلو : المرجع السابق، ص ١١٣ ـ ١١٤.
(٦٤) اندريه كلو : المرجع السابق نفسه، ص ١١٣ ـ ١١٤.
(٦٥) محمد حرب: العثمانيون في التاريخ والحضارة، دار القلم، دمشق، الطبعةالأولى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص٣.
(٦٦) أحمد رفيق : أونجي عصر هجر يده، إستانبول حيات، الآستانة، ١٣٣٣ هـ، ص ١٢٨ ـ ١٤٣.

ملكه سيكون صديقاً لسليمان، عدواً لأعدائه.

وفي عام ٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م وقع الباب العالي معاهدة مع زابولا وعدته فيها الدولة العثمانية بخمسين مدفعاً، وخمسمائة قنطار من البارود كدفعة أولى لحملة ضد فرديناند(٦٧).

علم فرديناند بنجاح مهمة خصمه. فقام بإرسال بعثة إلى إستانبول كانت أقل دهاءاً وذكاءاً من بعثة زابولا. وكانت التعليمات التي زود بها رئيس البعثة "هوبرد نسكي" هي إرجاع كل الأراضي التى أحتلتها الدولة العثمانية بما فيها بلغراد. وكان رئيس بعثة فرديناند يعرض طلباته بإلحاح وشدة ورعونة. مما جعل الصدر الأعظم يغلظ له في الرد. وتم إحتجاز اعضاء هذه البعثة ما يقرب من تسعة شهور(٦٨).

ثم قابل السلطان سليمان أعضاء بعثة فرديناند قبل رحيلهم. وتحدث إليهم قائلاً: "لم يشعر سيدكم إلى حد الآن بوطأة صداقتنا وجوارنا، ولكنه سيلمس ذلك عن قريب. قولوا له إني سألقاه بنفسي، بكل قوتي، واعتزم إرجاع ما يطالب به بيدي، قولوا له أيضاً أنه في إمكانه أن يهيء كل شيء لإستقبالنا"(٦٩). وانصرفت بعثة فرديناند خائبة.

محاولة فتح فيينا :

بعد إنتصار السلطان سليمان القانوني في معركة " موهاج " وهزيمة المجريين أخذ يعد العدة لحرب جديدة في أوربا لا تقل عن الحروب التي سبقتها بل هي أكثر أهمية وأشد ضراوة وبأساً، إذ أن إنتصار العثمانيين في هذه الحرب الجديدة يعني نشر الإسلام في معظم أوربا، وتصبح السيادة العليا للإسلام والمسلمين في هذه القارة النصرانية.

---

(٦٧) عثمان زاده : المصدر السابق، ص ١٠٠ - ١٠٣.

(٦٨) أحمد جواد : تاريخ عسكري عثمانلي، ص ٥٣ - ٥٧.
أحمد رفيق : المصدر السابق، ص ٩١ - ٩٣.

(٦٩) أحمد بن عبد الله فوري : أخلاق سليمان، ص ١٠٢ و١٠٣.
بجوى إبراهيم باشا : المصدر السابق، ص ٩٣ و٩٤.

ولأهمية هذا الميدان الجديد فقد استمر السلطان ينظم جيشه ويهيئه مدة ثلاث سنوات لغزو بلاد النمسا وفتح عاصمتها فيناً. وكان السلطان سليمان يضع في إعتباره أمرين مهمين. الأول: أنه أمام خصم عنيد يعلن دائماً تحديه للدولة العثمانية، وللسلطان سليمان شخصياً، وأنه الوحيد في أوربا الذي يدعي أنه يستطيع إيقاف الزحف الإسلامي. ذلك الخصم هو الإمبراطور شارلمان أو شارك الخامس، ملك أسبانيا وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة. وهو من أكثر حكام أوربا في ذلك الوقت عداوة للإسلام والمسلمين، ومن أشدهم تعصباً لنشر النصرانية.

الأمر الثاني : كان السلطان سليمان يدرك أن أوربا لن تقف على الحياد في الحرب التي ستخوضها الدولة العثمانية مع النمسا. بل ستجتمع في هذه المرة ضد الإسلام لأن سقوط النمسا يعني سقوط القارة الأوربية في أيدي المسلمين والقضاء على العالم النصراني. فالنمسا تعتبر قلب القارة الأوربية.

أكتملت تجهيزات السلطان سليمان سنة ٩٣٦هـ/١٥٢٩م وأصدر أمراً بتعيين إبراهيم باشا قائداً للجيش العثماني"سر عسكر" على أن يكون للسلطان القيادة العليا(٧٠).

أدرك شارلمان هدف الجيش العثماني، وهدف السلطان سليمان فتحاشى لقاء القانوني، وتخوف أن يكون مصيره كمصير لويس الثاني ملك المجر. فما كان منه إلا أن سلّم إلى أخيه فرديناند حكم دوقيات "تيرو" و"كرانتي" و"ستيري" و"كرنيول" و"النمسا" وبذلك أصبح فرديناند مسؤلاً عن حماية مناطق الدانوب، ومسؤلاً عن التصدي عسكرياً للعثمانيين، وهي مسؤلية ثقيلة. بينما خص شارلمان نفسه بحماية البحر المتوسط من الدولة العثمانية(٧١). وقد خاض الاسطول العثماني معارك هائلة ضده أنتصر في أغلبها، وهذا خارج عن نطاق دراستنا في هذا البحث.

غادرت الحملة إستانبول متجهة شمالاً، وقد عاقت الأمطار وفيضانات الأنهار سرعة تقدم الحملة إلى درجة أن مات عدد كبير من الجند غرقاً، واستغرقت الحملة

---

(٧٠) داتشمان ظهوري : عثمانلي إمبراطور لوغو تاريخي، جـ ١، ص ١٣٧.
محمد ثريا أفندي : المصدر السابق، جـ ١، ص ٦٣ - ٦٤.
(٧١) انـدريـه كـــلو : المرجع السابق، ص ١١٦.

حتى وصلت إلى بلغراد قرابة شهرين، وأخيراً وصل الجيش إلى موهاج حيث كانت ذكرى الإنتصار العثماني الكبير ترفرف في أجوائها(٧٢).

وفي موهاج كان يوحنا زابولا الذي نصبه القانوني ملكاً على بلاد المجر ينتظر السلطان على رأس ستة آلاف فارس حيث تم الإستقبال الرسمي الذي أعترف فيه السلطان بزابولا ملكاً على المجر بحضور كبار رجال الدولة من مدنيين وعسكريين، وقام زابولا بتقبيل يد السلطان ثم أُذن له بالجلوس وسلمه السلطان "تاج القديس إيتيان" الذي أستولى عليه العثمانيون من قبل، كما أهداه السلطان ثلاثة خيول وبعض الهدايا، وبذلك أصبح ملك بلاد المجر النصرانية تابعاً لسلطان إستانبول. وقد قال السلطان سليمان: " هذه المملكة هي لي. وقد نصبت عليها خادماً لي، فأنا أعطيته المملكة، وأنا قادر على إسترجاعها إذا أردت لأنه من حقي أن أتصرّف فيها كما أشاء، كما أتصرّف في سكانها وهم رعاياي(٧٣). وبذلك أصبح إستقلال المجر أمراً وهمياً.

غادر الجيش العثماني موهاج إلى "بودا" التي أستولى عليها أنصار فرديناند، ولم يطل حصار الجيش العثماني لهذه المدينة حيث استطاع العثمانيون دخولها في اليوم السادس من الحصار. وفي بودا تم تنصيب زابولا ملكاً على بلاد المجر للمرة الثانية في إحتفال كبير أشرف عليه نيابة عن السلطان القائد الثاني للإنكشارية. وقد تعمد السلطان عدم حضور هذا الحفل للتعبير عن تهاونه بتابعه الذي لا يعدو أن يكون منصبه إسماً بدون مسمى على رأس مقاطعته تابعة للدولة(٧٤).

أمر السلطان بالرحيل سريعاً إلى فينّا وكان فصل الخريف على الأبواب، والأحوال الجوية متردية للغاية، وكان السلطان يخطط لقضاء فصل الشتاء في مدينة فينّا. وقد وصلها الجيش العثماني يوم ٢٤ سبتمبر من العام نفسه(٧٥).

---

(٧٢) احمد جواد : تاريخ عسكري عثماني، ص ٨١ - ٨٣.

جلال يحي : المرجع السابق، ص٣٢٨

(٧٣) دلشمان ظهوري : عثمانلي بادشا هلري، جـ ١، ص٢٢٣.

(٧٤) قره جلبي زاده : سليمان نامه، ص ٩٧.

(٧٥) راشد : تاريخ، الآستانة ١٢٨٢هـ، جـ ٢ ص ١٣١-١٤٤.

وبهذا أصبح السلطان سليمان في قلب أوربا، وكانت أمنيته التي لم تتحقق هي لقاء شارلمان.

قسم السلطان جيشه إلى أقسام رئيسية لحصار المدينة، فعهد إلى والي البوسنة بقيادة الطلائع، وعهد إلى الصدر الأعظم بقيادة القلب، كما عهد إلى والي الصرب بقيادة المؤخرة، ثم يأتي بعد ذلك جيش الأناضول وجيش الروملي، والفرق المختلفة للإنكشارية(٧٦).

أما القوات النصرانية المدافعة عن المدينة فكانت كبيرة للغاية كما توقع ذلك السلطان سليمان. فكانت من جيوش بوهيميا، وإسبانيا، والنمسا، وبرجوازية فينّا، كما أشترك بروتستانت المانيا في الدفاع عن هذه المدينة، ولم تتوانى الدول الأوربية في إرسال النجدات تلو النجدات للدفاع عن قلب أوربا فينّا، وقد استغل فرديناند وأهالي المدينة فرصة تأخر وصول القوات العثمانية إلى فينّا بسبب الأمطار والفيضانات فقاموا بترميم أسوار المدينة وزيارة التحصينات وإغلاق جميع الأبواب ما عدا باباً واحداً تركوه لوصول النجدات النصرانية وأحاطوه بحصون منيعة تمنع إقتحامه(٧٧).

ورغم كل هذه الإستعدادات، وكل هذه القوات المدافعة عن المدينة فكان فرديناند يتوقع الهزيمة لذلك قرر أن يقيم في مدينة"لينز" وليس داخل مدينة فينّا ليكون على إتصال بأخيه شارلمان لتنظيم المعونات خاصة في حالة سقوط فينّا فإن حملة طويلة الأمد سيقوم بها العثمانيون عبر المانيا في خطة إكتساح أوربا(٧٨).

وبدأت المعركة بين الطرفين، وبدأت المدفعية العثمانية تضرب أسوار فينّا، وبدأ أهالي فينّا في الإستماتة في الدفاع عن مدينتهم، كما توافدت الجيوش الأوربية المساندة تحاول ضرب الحصار على الجيش العثماني من الخلف، وبذا أصبح هذا الجيش المسلم يجاهد في جبهتين، والهب السلطان سليمان القانوني والصدر الأعظم إبراهيم باشا، وقاضي العسكر حماس الجيش بالخطب الحماسية التي تبين ما أعده الله للمجاهدين من الأجر الجزيل في الدنيا والآخرة. وبدأت وحدات الجيش العثماني في التسابق لنيل النصر

---

(٧٦) سعد الدين : تاج التواريخ، جـ ١ ص ١٧٠ - ١٧٣.
(٧٧) أندريه كلو : المرجع السابق، ص ١١٩ - ١٢٠.
(٧٨) سلانيكي : تاريخ، ص ٩١ - ٩٣.

أو الشهادة. فأخذوا في تسلق الأسوار والمدفعية النصرانية تصب نيرانها عليهم(٧٩).

استطاعت المدفعية العثمانية إحداث ثغرة في سور مدينة فينّا بعد ضرب بالمدافع استمر طيلة ثلاثة أيام بلياليها، ولكن لم يتم إستغلالها بشكل سريع مما يُعد خللاً في الإستراتيجية العثمانية العسكرية(٨٠). ويعزوا بعض المؤرخين السبب في عدم السرعة في دخول المدينة إلى تردي الأحوال الجوية، وتضاءل المؤنة والذخيرة العثمانية، والإعياء والتعب الذي أنتاب الجيش العثماني بعد مرور أكثر من ثلاثة شهور سيراً على الأقدام ومعارك متصلة. فلم يصل الجميع إلى أسوار فينّا إلا بعد إعياء شديد(٨١).

ورغم هذا كله حاول السلطان سليمان أن يدفع بالجيش الإنكشاري إلى تسلق أسوار المدينة، فوعد كل إنكشاري بألف أقجة(٨٢)، ووعد من يتسلق الأول بثلاثين ألف

---

(٧٩) أحمد جواد : المصدر السابق، ص ٩١-٩٢.

أحمد عطا : عطا تاريخ، طبع ١٢٩٣هـ ص ١٨٣.

(٨٠) أحمد جواد : تاريخ عسكري عثماني، ص ٩٦.

مصطفى ساعي: تذكرة البنيان قوجه معمار سليمان، مطبعة إقدام، إستانبول ١٣١٥هـ ص ١٢٣-١٣١.

(٨١) أحمد جواد : المصدر السابق، ص ٩٨.

عثماني قانون - نامه‌سي: طبعة أبي السعود ونشتجي رمضان زاده محمد، الآستانة ١٣٣١هـ ص ٢٠٠-٢٢٣.

(٨٢) الأقجة : هي وحدة من عملة تركية قديمة. سكت لأول مرة عام ٧٣٠ هـ/١٣٢٩ م في عهد السلطان أورخان بن عثمان. وكانت على ثلاثة أنواع :

النوع الأول : وحدة قيمتها ٥٠ أقجة. ولم يكن عليها تاريخ، كما لم يذكر محل سكها قطرها ٢٢مم. ومكتوب على وجهها أورخان، خلد الله ملكه بالغة العربية.

النوع الثاني : وحدة من أقجة واحدة فقط بلا تاريخ ولاذكر للمكان، على وجهها الأول أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة، وكلمة الشهادة، وعلى وجهها الثاني أورخان، خلد الله ملكه.

النوع الثالث : على الوجه الأول أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة، وعلى الوجه الثاني تاريخ ٧٢٩ ومحل سكتها بورصة، وقطرها ١٨مم، ويتتابع سك الأقجة طوال مدة السلطنة العثمانية حتى عهد السلطان محمود الثاني. أي حتى عام ١٢٣٤هـ/١٨١٨م، وضربت من فضة عيارها ٩٠٪ (دائرة المعارف التركية، ميدان لاروس، جـ١ ص٢١٣، الطبعة الأولى، ١٩٧٣م، استانبول).

أفجة. وتوالت هجمات الجيش العثماني، ولكن لم يكتب الله عز وجل فتح هذه المدينة لحكمة يعلمها هو عز وجل.

قرر السلطان سليمان بعد أن رأى كثرة الشهداء حول أسوار المدينة إيقاف الحرب حفاظاً على من بقي من الجيش، كما أعلن أن من أهدافه الرئيسية مواجهة فرديناند وشارلمان لحماً ودماً، واعترفت المصادر والمراجع الأوربية أن السلطان سليمان لم يكن عاجزاً عن إقتحام مدينة فينًا، ولكنه رأى أن الثمن الذي سُيدفع لدخول هذه المدينة كبير للغاية أكبر من حجم المدينة ذاتها، ذلك الثمن هو كثرة الشهداء الذين قد يصل عددهم إلى نصف الجيش(٨٣).

أطلق أهالي فينًا مدافع الفرح، ودقوا النواقيس فرحاً وإبتهاجاً برحيل الجيش العثماني الذي عانا معاناة شديدة في السير وسط الثلوج حتى وصل إلى مدينة " بودا " حيث كان " يوحنا زابولا " ملك المجر في إنتظارهم، وهيأ للجيش العثماني وسائل الراحة بضعة اسابيع، فأهداه السلطان عشر خُلع، وثلاثة خيول، ثم رحل الجيش العثماني وسط الثلوج والطرق المغمورة بالمياه حتى وصل إلى مدينة إستانبول(٨٤).

وظل السلطان سليمان طوال السنتين التاليتين يرسل الجيوش تلو الجيوش إلى النمسا في محاولة لإخضاعها للحكم العثماني، وارسل فرديناند عدة بعوث إلى إستانبول لمحاولة عقد صلح مع الدولة العثمانية. ولكن شيئاً من ذلك لم يتم وظلت حالة الحرب قائمة بين الطرفين.

وفي عام ٩٣٩ هـ / ١٥٣٢ م قام السلطان سليمان القانوني فيما يعرف في المصادر التركية باسم" الحملة الألمانية ضد ملك أسبانيا" أي شارل الخامس. وتولى السلطان قيادة هذه الحملة بنفسه، لكن شارل الخامس لم يجابه السلطان ولم يتم بينهما معارك حاسمة، واكتفت الجيوش العثمانية بفتح عدد من المدن الهامة مثل

---

(٨٣) محمد زكي : مقتول شاه زادلر، الآستانة ١٣٣٩هـ، ص ٤٠ - ٤٤.

(٨٤) لندريه كلو : المرجع السابق، ص ١٢١.

يلماز أوزتونا : المرجع السابق، ص ٢٧٥.

جلال يحي : المرجع السابق، ٣٢٨-٣٢٩.

مدينة كنز (بالتركية كوسك)[٨٥]. ثم عقدت هدنة بين الطرفين عام ٩٤٠هـ/١٥٣٣م.

حدثت بعد الحملة الألمانية إضطرابات في منطقة البغدان التي كانت تتمتع بحكم ذاتي من قبل السلطان سليمان القانوني منذ عام ٩٣٦هـ/١٥٢٩م وعلم السلطان ان الأمير المنتخب لهذه المنطقة قام بمؤامرة مع النمسا ضد الدولة العثمانية. فما كان من السلطان سليمان القانوني إلا أن جهز حملة كبيرة قادها بنفسه عام ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م. وتمكن الجيش العثماني من دخول عاصمة البغدان مدينة سيجاوة وعين السلطان سليمان أميراً جديداً على البغدان، كما ضم السلطان في حملته هذه إقليم بساريبا، وتكوّن من هذا الإقليم ومنطقة البغدان سنجقية عثمانية تصرف إيراداتها على الحصون والقلاع العثمانية الموجودة آنذاك، وبالتالي أصبحت البغدان تحكم مباشرة من السلطان العثماني في إستانبول[٨٦].

وفي عام ٩٤٥ هـ / ١٥٣٨ م عُقد إتفاق بين يوحنا زابولا وفرديناند تقرر فيه إقتسام البلاد التي دخلتها الجيوش العثمانية، وأن يحصل كل منهما على لقب ملك، وكانت هذه تسيسه من فرديناند للإيقاع بزابولا الذي قبل بحماية العثمانيين له، وقام فرديناند بإرسال صورة من هذا الإتفاق إلى السلطان سليمان القانوني في إستانبول ليعلمه بعدم وفاء زابولا للدولة العثمانية[٨٧].

توفي زابولا عام ٩٤٧ هـ / ١٥٤٠ م وخلّف زوجته " إيزبيلا " وابنه الصغير "سيجزموند " فاستغل فرديناند الفرصة وقام بحملة عسكرية لإنتزاع بلاد المجر من حماية الدولة العثمانية، وضرب الحصار على مدينة "بودا" فلما علم السلطان بذلك جهز جيشاً على وجه السرعة. تولى السلطان قيادته بنفسه ثم اتجه الجيش العثماني

---

(٨٥) سلانيكي : تاريخ، ص ٩١-٩٢

سليمان القانوني : ديوان مجي، ص ١٩٥ و١٩٦.

محمد حرب : المرجع السابق، ص ٩٣.

(٨٦) فريدون : منشآت سلاطين، ص ٦٠٢.

(٨٧) محمد فريد بك المحامي : المرجع السابق، ص ٢٣٦.

جلال يحى : المرجع السابق، ص ٣٣٣.

إلى بلاد المجر لإنقاذها من أيدي فرديناند عام ٩٤٨هـ/١٥٤١م. فلما علم فرديناند بذلك رفع الحصار عن بودا وولى هارباً. فوصل السلطان إلى مدينة بودا ودخلها في صيف تلك السنة واعاد المجر ولاية عثمانية، وقام بتحويل أكبر كنائسها إلى مسجد جامع، كما أعلن السلطان سليمان حمايته لزوجة زابولا وإبنه الصغير(٨٨).

وفي عام ٩٥٠ هـ / ١٥٤٣ م جهز السلطان جيشاً كبيراً أعد له إمكانيات واسعة. وخرج به من إستانبول متجهاً ناحية الشمال حتى وصل إلى مدينة بلغراد، واستطاعت القوات العثمانية الإستيلاء على المواقع الحصينة المحيطة بمدينة بودا والتي لم يستولى عليها السلطان في حملته السريعة التي قام بها عام ٩٤٨هـ/١٥٤١م لطرد فرديناند من بلاد المجر. كما فتح الجيش العثماني مدينة استراكون "جران". وبهذا يكون السلطان قد حصل على مواقع ثابتة وحصينة للحكم في منطقة إلدانوب(٨٩).

لم تتوقف الحملات العثمانية على منطقة الدانوب، وكان من أشهر الحملات التي أرسلها السلطان، تلك الحملة التي أسند قيادتها إلى محمد باشا والتي تمكنت عام ٩٥١ هـ/ ١٥٤٤م من فتح مدن جديدة في منطقة الدانوب، وتهدئة الاحوال في مناطق أخرى(٩٠) مما جعل فرديناند يشعر باليأس وخيبة الأمل في مقاومة العثمانيين فطلب عقد هدنة مع الدولة العثمانية، ووافق السلطان سليمان على هذا الطلب لإنشغاله بإعداد حملة كبيرة على بلاد فارس. وتم توقيع هذه الهدنة في عام ٩٥٢ هـ / ١٥٤٥ م. وكانت مدتها خمس سنوات(٩١).

وبعد ذلك بثلاث سنوات بدأ مارتينوزي أسقف جروسواردين يحيك المؤمرات مع فرديناند في النمسا عندما رأى أنه لا يحظى بتقدير العثمانيين حيث تمكن عام ٩٥٨ هـ / ١٥٥١ م من أن يجبر الملكة إيزبيلا أن تسلّم إقليم ترانسلفانيا لفرديناند وتقبل ببعض التعويضات، عندئذ أرسل فرديناند جنوداً إسبانيين، وإيطاليين للسيطرة

---

(٨٨) سعيد أحمد برجاوي : الإمبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري، بيروت ١٩٩٣م، ص ٢٠.

(٨٩) إسماعيل جيب : تورك تجدد أدبياتي، الآستانة، ١٩٢٥ م، ص ٦٨٢.

(٩٠) يلماز أوزتونا : المرجع السابق، ص ٢٨٣.

(٩١) محمد زكي : مقتول شاه زادلر، ص ١٨٣ - ١٩٧.

على أهم المواقع الحصينة(٩٢).

وكانت الأوضاع العامة لكل من السلطان سليمان القانوني وفرديناند سيئة تمنع من قيام كل طرف بهجوم عسكري على الطرف الآخر. فكان السلطان سليمان تشغله المشاكل الداخلية في الدولة العثمانية بالإضافة إلى الخطر الفارسي من جهة الشرق، أما فرديناند فكان يفتقر إلى الوسائل اللازمة لعملية الإستمرار في الهجوم.

لجأ فرديناند بعد أن عجز بقوة السلاح أن يبعد سيجموند ابن زابولا عن الحكم إلى إستخدام المناورات الدبلوماسية مع الدولة العثمانية من أجل الوصول إلى أهدافه. فطلب فرديناند من السلطان سليمان القانوني أن تقبل الدولة العثمانية بالتنازل عن إقليم ترنسلفانيا، وعلى الرغم من إنشغال السلطان إلا أنه رفض وبكل حزم وشدة التنازل عن شيء من أملاك الدولة(٩٣).

وفي عام ٩٦٩هـ/١٥٦١م عاد السلطان سليمان للتفرغ لأوربا من جديد، واصبحت الظروف العامة في الدولة مهيئة لذلك، إلا أن فرديناند لم يكن لديه إمكانيات كافية للتصدي عسكرياً للدولة العثمانية فطلب عقد صلح عام ٩٧٠هـ/١٥٦٢م لكي يجدد شروط عام ٩٥٤هـ/١٥٤٧م ووافق فرديناند أن تدفع النمسا الجزية للدولة العثمانية(٩٤).

ووصول العثمانيين إلى الدانوب آخر حد ممكن لتوسعهم الجغرافي، حيث كان أوج إتساع للدولة وأوج قوة الدولة العثمانية في عهد سليمان القانوني، حيث توفي فرديناند عام ٩٧٢هـ/١٥٦٤م وهو لا يزال يدفع الجزية للدولة العثمانية، وخلفه في الحكم إبنه الذي انقلب على الدولة العثمانية ورفض دفع الجزية(٩٥).

---

(٩٢) فريدون : المرجع السابق، ص ٦١٣.
يلماز أوزتونا : المرجع السابق، ص ٢٨٣.

(٩٣) محمد فريد بك المحامي : المرجع السابق، ص ٣٢٦.
جلال يحى : المرجع السابق، ص ٣٣٣.

(٩٤) أحمد رفيق : المصدر السابق، ص ١٧٠ و١٧٢.
عثمان زاده : حديقة الوزراء، ص ١٢٧.

(٩٥) أحمد رفيق : كندلر سلطنتي، ص ١٩٣.

آخر حملة للسلطان سليمان القانوني على أوربا :

كان فرديناند قد تعهد بدفع ثلاثين ألف دوق مجري جزية سنوية للدولة العثمانية، وفي عام ٩٧٢هـ / ١٥٦٤م توفي فرديناند فرفض إبنه " مكسمليان " الذي تولى الحكم بعده دفع الجزية، وألغى المعاهدة التي وقعها والده مع الدولة العثمانية، وكان السلطان سليمان يرغب تجديد الصلح، لكن الحرب شبت بين مكسمليان الثاني وبين سيجزموند صاحب ترنسلفانيا، لأن مكسمليان قد احتل مدينة توكاي من أعمال المجر، فما كان من ملك المجر إلا أن رد على مكسمليان واحتل بعض المدن التابعة له، وبذلك تجددت الحرب بين الطرفين، ومما زاد في إشتعال الحرب تولي محمد باشا منصب الصدارة العظمى في الدولة العثمانية وهو من صقالبة البشناق وله ميول كبيرة للحرب والقتال[٩٦].

وفي عام ٩٧٤ هـ/١٥٦٦ م جهز السلطان سليمان القانوني جيشاً كبيراً تولى قيادته بنفسه رغم تقدمه في السن وشيخوخته فقد كان عمره يناهز الثالثة والسبعين. وخرج الجيش العثماني من إستانبول متجهاً صوب بلغراد، وكانت هذه الحملة على أوربا هي الثالثة عشرة والأخيرة في نظر المؤرخين الأوربين، بينما هي الحملة الثامنة عشرة والأخيرة في نظر المؤرخين الأتراك[٩٧].

كان هدف السلطان من هذه الحملة هي الدفاع عن بلاد المجر التابعة للدولة العثمانية، وفي بلغراد قابل سيجزموند ابن زابولا السلطان سليمان وجدد له الولاء والطاعة. فأكرمه السلطان وتعهد له إعادة ما أُخذ منه، ثم توجه الجيش العثماني تجاه قلعة " آرلو "، وهي القلعة التي كان السلطان قد عجز عن فتحها قبل أربعة عشر عاماً، واستطاع الجيش العثماني هذه المرة فتح هذه القلعة المنيعة بعد معارك كبيرة بين الطرفين[٩٨].

---

(٩٦) بجوى إبراهيم باشا : تاريخ بجوى، ص ١٢٣.
(٩٧) احمد رفعت : روضة العزيزية، ص ١٩٨ و١٩٩.
(٩٨) منجم باشي : المصدر السابق، ص ١٥٠ - ١٥٣.
نهاد سامي : المصدر السابق، ص ٩١ - ٩٧.

وبعد مغادرة السلطان لقلعة " آرلو " بعد فتحها أغار أمير سكتوار على فرقة من الجيش العثماني وتغلب عليها. فصمم السلطان سليمان على التوجه إلى مدينة " سكتوار " وفتحها، وامتطى جواده وهو مريض لتفقد جيشه رغم محاولة كبار القادة ورجال الدولة - وهم يتباكون حوله - ثنيه عن عزمه هذا، أو على الأقل يُنيب عنه بعض القادة ولا يدخل المعركة بنفسه، ولكنه أصرَّ على دخول المعركة وقيادتها بنفسه غير آبه بالمرض والكبر الذي تمكن منه، وفي أقل من أسبوعين أستطاع الجيش العثماني إحتلال المعاقل الأمامية للمدينة واحتمى المدافعون عز المدينة بقلعتها الداخلية، غير أن السلطان أصدر أمراً للجيش بضرب الحصار على القلعة[٩٩].

وخلال الحصار توفي السلطان سليمان القانوني عام ٩٧٤هـ/١٥٦٦م، وأخفى صوقللي خبر وفاة السلطان ثلاثة أسابيع ليتحاشى قيام المتاعب في صفوف الجيش، وليتيح لإبنه سليم (الثاني) إعتلاء العرش[١٠٠].

وبعد وفاة السلطان بيومين شدّد الجيش العثماني هجمته على القلعة وفتحوها عنوة رغم قوى الدفاع، وسقط آلاف من الجيش العثماني شهداء داخل القلعة بفعل الإنفجار الذي دبره المدافعون عن القلعة حينما رأوا سقوطها في يد الجيش العثماني[١٠١].

وبذلك تحققت أمنية هذا السلطان الشهيد الذي كان مصمماً على فتح هذه المدينة رغم أن القدر لم يمكنه من رؤية جيشه وهو يدخل مدينة سكتوار رافعاً راية النصر.

أرسل الوزير صوقللي لولده سليم الذي كان بمدينة كوتاهيه[١٠٢] يخبره بذلك،

---

(٩٩) محمد فريد بك المحامي : المرجع السابق، ص ٢٥٠ - ٢٥١.
يلماز اوزتونا : المرجع السابق، ص ٣٥٢ - ٣٥٣.
جلال يحي : المرجع السابق، ص ٣٣٨.
بسام العسيلي : المرجع السابق، ص ٤٠ - ٤١.

(١٠٠) فريدون : منشآت سلاطين، جـ ١، ص ٥٧٧.

(١٠١) نامق كمال : عثمانلي تاريخ، ص ١٤٣ - ١٤٧.

(١٠٢) كوتاهية في غرب وسط الأناضول جنوب مدينة إسكي شهر.

ويطلب منه الحضور على وجه السرعة(١٠٣).

خرج سليم من كوتاهيه لملاقات الجيش العثماني وحمل جثمان والده الشهيد، وقد تمكن من لقاء الجيش بالقرب من بلغراد وتولى إستلام الحكم وقيادة الجيش عائداً إلى إستانبول(١٠٤).

ودخل الجميع إستانبول عاصمة الدولة العثمانية في جو من الحزن والألم لفقد سلطان الدولة وقائد الجيش مدة ست واربعين سنة. وتم دفن السلطان سليمان يرحمه الله في مقبرته الملحقة بمسجد السيمانية في إستانبول(١٠٥)

ويذكر بعض المؤرخين أن اعضاء السلطان الباطنية قد دفنت في المكان الذي توفي فيه خارج أسوار مدينة سكتوار، وهذا القبر الذي دُفنت فيه الأعضاء الباطنية موجود حالياً في المجر، والذي يسميه السّواح : " المكان الذي دفن فيه قلب سليمان العظيم "(١٠٦).

هذه صفحات موجزة عن جهاد السلطان سليمان القانوني في أوربا. وله صفحات مشرقة ومعارك مشرفة تمثل جهاده في البحر المتوسط حتى غدت الدولة العثمانية في عهد هذا السلطان سيدة البحر المتوسط بلا منازع، واصبح لها قواعد عسكرية على السواحل الأوربية المطلة على البحر المتوسط، وسنفرد لهذا بحثاً مستقلاً إن شاء الله تعالى. يتبعه دراسه آخرى عن جهاد السلطان سليمان القانوني ضد الشيعة في فارس.

---

(١٠٣) حاجي خليفة : فذلكه، ص ٣٢٠ ـ ٣٢٧.
محمد جمال : المرجع السابق، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.

(١٠٤) حاجي خليفة : تقويم التواريخ، ص ٢٩١
محمد ثريا افندي : سجل عثمانلي، جـ ١، ص ٣١١.

(١٠٥) أوقطاي آصلان آبا : فنون الترك وعمائرهم، ترجمة أحمد عيسى، الطبعة الأولى، إستانبول، ١٩٨٧م، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، بإستانبول، ص ١٨٩-٢٠٩.

(١٠٦) يلماز أوزتونا : المرجع السابق، ص ٣٥٣.

أولاً : المصادر والمراجع العربية والمعربة :

- أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني. الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢ م.
- إبراهيم بك حليم : التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية. الطبعة الأولى، ١٣٢٣هـ ـ ١٩٠٥م. مطبعة ديوان عموم الأوقاف.
- أندريه كنو : سليمان القانوني مَثَلٌ من التمازج بين الهوية والحداثة. تعريب البشير بن سلامة. دار الجيل. بيروت.
- اوقطاي آصلان آبا : فنون الترك وعمائرهم. ترجمة أحمد محمد عيسى. الطبعة الأولى، إستانبول، ١٩٨٧ م، مركز الابحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية بإستانبول.
- بسام العسيلي : مشاهير الخلفاء والأمراء ـ القانوني القائد. الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م، دار النفائس، بيروت، لبنان.
- جلال يحى : العالم الإسلامي الحديث والمعاصر. الطبعة الأولى، ١٩٨٣ م، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر.
- روبير مانتران : تاريخ الدولة العثمانية، جـ١، ترجمة بشير السباعي، الطبعة الأولى ١٩٩٣ م، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.
- سعيد أحمد برجاوي: الإمبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري. بيروت، ١٩٩٣م، المكتبة الأهلية للنشر والتوزيع.
- طاشكبري زاده: الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية. القاهرة، ١٣١٠هـ.
- عبد القادر ده ده أغلو : البوم العثمانيين. ترجمة محمد خان، الناشر : الدار العثماني للنشر، ١٣٩٧ هـ.

- عبد العزيز محمد الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، جـ٢، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٦ م، القاهرة.
- فؤاد شاكر: البوسنة والهرسك. مأساة شعب وهوان أمة. الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م، القاهرة.
- محمد موفق الارناؤوط : الإسلام في يوغسلافيا من بلغراد إلى سراييفو. الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م، دار البشير للنشر، عمان، الأردن.
- محمد فريد بك المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية. تحقيق إحسان حقي، الطبعة السادسة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، دار النفائس، بيروت، لبنان.
- محمد كمال الدسوقي: الدولة العثمانية والمسألة الشرقية. دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٦م.
- محمد حرب : العثمانيون في التاريخ الحضارة. دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.
- نور الدين حاطوم : تاريخ عصر النهضة الأوربية. الطبعة الأولى، دار الفكر الحديث، بيروت، لبنان، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م.
- هربرت فيشر : أصول التاريخ الأوربي الحديث من النهضة الأوربية إلى الثورة الفرنسية. ترجمة زينب عصمت راشد وأحمد عبدالرحيم مصطفى، الطبعةالأولى،١٩٦٥م، دار المعارف بمصر.
- يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية. ترجمة عدنان محمود سليمان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، إستانبول.
- يوسف آصف : تاريخ سلاطين آل عثمان. تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، دار البصائر، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

ثانياً : المصادر والمراجع التركية :

- أحمد راسم : تاريخ. إستانبول، ١٣٢٦ هـ - ١٣٢٨ هـ.
- أحمد بن عبد الله فوري : أخلاق سليمان. برلين، ١٩٠٣ م.
- أحمد جواد : تاريخ عسكري عثماني. إستانبول، ١٨٨٢ م.
- أحمد رفيق : أوننجي عصر هجر يده. إستانبول حيات. الآستانة، ١٣٣٣ هـ.
- أحمد رفيق : كدنلر سلطتي. الآستانة، ١٣٣٢ هـ.
- أحمد عطا : عطا تاريخي. ١٢٩٣ هـ.
- أحمد رفعت : روضة العزيزية. الآستانة، ١٢٨٢ هـ.
- إسماعيل جيب : تورك تجدد أدبياتي. الآستانة، ١٩٢٥ م.
- بجوى إبراهيم باشا : تاريخ بجوى، المطبعة العامرة، إستانبول، ١٢٨٣ هـ.
- حاجي خليفة : تقويم التواريخ. الآستانة، ١١٤٦ هـ.
- حاجي خليفة : فذلكة. إستانبول، ١٢٨٦ هـ.
- حافظ حسين الأيوانسرابي : حديقة الجوامع. جـ ١، الآستانة، ١٢٨١ هـ.
- خير الله : دولت عثمانية تأريخ. الآستانة، جـ ١١، ١٢٩٢ هـ.
- دانشمان ظهوري : عثمانلي إمبراطور لوغو تاريخي. جـ١، إستانبول، ١٩٦٥م.
- دانشمان ظهوري : عثمانلي بادشا هلري، جـ ١، إستانبول، ١٩٧١ م.
- راشد : تأريخ. الآستانة، ١٢٨٢ هـ.
- سلانيكي : تأريخ. الآستانة، ١٢٨١ هـ.
- سليمان القانوني : ديوان محبي. الآستانة، ١٣٠٨ هـ.
- سعد الدين : تاج التواريخ. جـ ١، الآستانة، ١٢٧٩ هـ.
- عثمان زاده : حديقة الوزراء. الآستانة، ١٢٧١ هـ.

- عثمانلي قانون ـ نـاملري : طبعـة أبـي السعود ونشـانجي رمضـان زاده محمـد، الآستانة، ١٣٣١ هـ.
- عبد الله خلوصي : دوحة الملوك. الآستانة، ١٢٦٧ هـ.
- فريدون : منشآت سلاطين. الآستانة، ١٢٧٥ هـ.
- قره جلبي زاده : سليمان نامه. بولاق، ١٢٤٨ هـ.
- مصطفى ساعي: تذكرة البنيان قوجه معمار سليمان. مطبعة إقدام، إستانبول، ١٣١٥هـ.
- محمد زكي : مقتول شاه زادلر. الآستانة، ١٣٣٦ هـ.
- منجم باشي : صحائف الأخبار. جـ ٣، الآستانة، ١٢٨٥ هـ.
- محمد ثريا أفندي : سجل عثماني. جـ ١، الاستانة، ١٣٢٧ هـ.
- محمد جمال : وثائق سياسية. الآستانة، ١٣٢٧ هـ.
- نهاد سامي بانارلي : دستان ملوك آل عثمان، إستانبول، ١٩٣٨ م.
- نامق كمال : عثمانلي تأريخ. الآستانة، ١٣٢٦ ـ ١٣٢٨ هـ.

ثالثاً : القواميس ودوائر المعارف التركية :

- شمس الدين سامي : قاموس تركي. إستانبول، ١٣١٧ هـ.
- دائرة المعارف التركية : ميدان لاروس. الطبعة الأولى، إستانبول، ١٩٧٣ م.